علاء اللامي

الضحكة السوداء

لعلّ مشكلةَ الضابط المتقاعد شاكر محمود ـ والبعض قد يقول: موهبته ـ لا تَكْمن في النتائج الكارثية التي تنتهي إليها في كل مرّة وتُزْهر فيها، بل في طبيعتها العجيبة: فهل سمع أحدكم بإنسانٍ لا يبتسم إلا حين يَشْعر بالخوف، فإنْ تفاقم خوفُه واستحال رعباً قهقه على اتساع شدقيه وفَقَدَ السيطرةَ على نفسه تماماً؟...

بدأتْ قصتنا بمزحة بريئة أقدم عليها شاكر بعد تخرجه من الكلية العسكريّة طياراً، حيث عمد في نوبة من الجنون الخفيف إلى حلق شاربيه الكثّيْن على هيئة جناحَيْن متقابلَيْن، أشبَهَ بمثلَّثَيْن طويلَيْن قائمَي الزاوية وقد بُتِرَ ذَيلاهما؛ وكما هو معروف فالجناحان هما رمز القوّة الجويّة. كان قد فعل ذلك وهو شارد الذهن، إلى درجة أنه فوجئ تقريباً حين حدّق مليّاً في وجهه الجديد، ولكنّ أوانَ التراجع كان قد فات وما عاد بالوسع إعادة إنبات شعيرات الشاربين التي أتى عليها موسى الحلاقة. فأكمل شاكر حمّامَه ذلك الصباح وارتدى بذلته العسكريّة ثم خرج متوجهاً إلى القاعدة الجويّة وهو يترنّم:

ـ لما أنت ناوي تغيب على طول، مش كان لآخر مرة تقول...

ولج المقصفَ المزدحم بالجنود والضباط، ثم توقف عن السير في الوسط تقريباً، وأدار بصره بحثاً عن العصابة، عن أصدقائه الثلاثة: محسن وباسم وعدنان. أعاد الكرّة، وقبل أن يكمل نصف دائرة الرؤية، لمح يداً معلقة في الهواء تومئ له بالقدوم: إنه باسم!

لم يفهم شاكر سبب عاصفة الضحك التي استولتْ على أصدقائه الثلاثة. كان قد نسي موضوعَ الشاربَيْن المحلوقَيْن على شكل جناحين، وحين هدأت الجلبةُ نهض وتوجه الى صدر المقصف حيث وَقف عاملان يلبّيان طلبات الروّاد من المأكل والمشرب، ثم عاد من هناك حاملاً صينيّةً فضيّةً حَوَتْ قدحاً من الشاي بالحليب وصحناً صغيراً فيه قطعة من الكاهي مزينة بقليل من القيمر. راح شاكر يتناول رُيوقه الصباحيّ المتأخّر كالمعتاد صامتاً، غير أنّ أذنيه ظلتا تلاحقان بحرصٍ الحوارَ الدائرَ بين أصدقائه الثلاثة.

حين انتهى من تناول طعامه ونهض مع صحبه خارجين، لم يرسب في ذاكرته من كلّ ما قيل سوى خبرَيْن: الأول عن آخر شجارٍ حدث بين الأمير طلال، وهو الابن الأكبر للسلطان وطالبٌ في كليّة القوة الجويّة، وبين أحد الضبّاط المدرِّسين. والخبر الثاني كان أقرب إلى الإشاعة، ويتعلّق بوجود آلاتِ تصويرٍ ولاقطاتِ صوتٍ سريّةٍ رُكِّبتْ في أماكن كثيرة من الكلية لمراقبةِ كلّ ما يقال ويُفعل من قِبل الطلبة وأساتذتهم. حين سمع شاكر بهذا الخبر ابتسم ابتسامةً خفيفة، فقال عدنان مازحاً:

ـ خير، اللّهم اجعله خيراً!

مشيراً من طرف خفي إلى أنّ شاكراً قد خامره شعورٌ بالخوف، فابتسم وقد يضحك واحدةً من ضحكاته السوداء المشؤومة. ولكنّ أحداً لم يشأ التعليق على ما قاله عدنان، فواصل الجميع سيرهم صامتين باتّجاه مدرّجات التدريب وهواءُ الصباح البارد المنعش يتسلّل خفيفاً إلى أرواحهم.

فشلتْ كلُّ محاولات الأصدقاء الثلاثة، وطوال أسبوعين، في ثني شاكر عن الاستمرار بحلق شاربَيْه على تلك الهيئة الغريبة التي أصبحتْ مصدراً لا ينضب للتندر والسخرية. وقد لاحظ هو نفسه ذلك: كان كلّما نظر في وجه زميلٍ له اصطدم بتلك الابتسامة التي توشك أن تتحوّل قهقهةً عاتيةً في لحظات قليلة، وهو ما جعله يتحاشى النظر إلى وجوه الآخرين. غير أنّ ذلك كله لم يكن ليثنيه عن غيه. فاستمرّ يعتني بشاربَيْه «الجويَّين» عنايةً خاصةً... حتى كان ذلك اليوم الذي أطلت فيه سحبُ الكوارث.

قرر أصدقاء شاكر الثلاثة، بعد أن أعيتهم الحيلةُ في مسعاهم، أن يقوموا بعملٍ ما، من نوعٍ ما، يُجْبرون به صاحبهم شاكراً على نسيان هذه المزحة الخطيرة. فجعلوا يَقْدحون زناد التفكير والحُيلة عدّة أيّام. وأخيراً اهتدى محسن إلى فكرة طريفة، ولكنّها ماجنة ووقحة بعضَ الشيء، رفضها الآخران فوراً، ولكنّهما، وبعد أن تمثّلاها ذهنياً وضحكا منها وعليها، وافقا على تنفيذها في اليوم التالي.

تتلخّص الفكرة في أن يَعْمد كلٌّ واحدٍ من الثلاثة إلى حلق «شعرته»، تاركاً في وسطها مثلثيْن طويلَيْن متقابلَيْن يُشْبهان قدرَ الإمكان شاربَيْ صديقهم شاكر. وكان ذلك ما فعلوه حقاً. وقد حاز الشاب باسم فيما بعد استحسانَ الجميع لتقديمه الشاربيْن الأكثر شبهاً بشاربَيْ شاكر.

وفي اليوم التالي، وقبل الذهاب إلى مدرّج التدريبات، افتعل الشبابُ الحاجة إلى الذهاب إلى دورة المياه واصطحبوا معهم شاكراً. دلفوا جميعاً من باب المرافق الصحيّة، وبلمح البصر فكّ الثلاثةُ أحزمتهم وأرخَوْا سراويلهم ليَعْرضوا على صديقهم شواربَهم (السفلية). شَعَرَ شاكر في بداية الأمر بطرافةِ ما رأى، حتى إنه ابتسم واستملح ذلك، لكنّه سرعان ما أخذه الغضبُ والشعورُ بالإهانة الممزوجة بالحيرة.

ـ لا، هذا عيب! عيب!

قال شاكر محاولاً كسر حدة نوبة الضحك التي سيطرتْ على زملائه، ولكنْ دون جدوى. فتركهم يزرّرون سراويلهم، ويشدّون أحزمتهم، وخرج مغضباً عابساً. كان يسير بخطى واسعة متلاحقة تُعْرب عن غضبه ومرارته. وحين بلغ بوابةَ القاعدة الجويّة الرئيسة، التي تحتلّ الكليةُ ثلثَ مساحتها تقريباً، لم ينتبه إلى الهرج والمرج اللذين كانا يسودان هناك، لا بل إنّه لم يؤدِ التحية العسكريّة لضابطٍ كبيرٍ كاد يصطدم به شارداً مذهولاً. كانت سيارة فخمة سوداء من سيارات ابن السلطان قد تعرضتْ لحادث سيرٍ قبالةَ البوابة، وقد احتشد عددٌ من العسكريّين حولها يعالجون البابَ الخلفيَّ محاولين فتحَه وإخراجَ الشاب المذعور الذي راح يصرخ شاتماً الجميعَ بأعلى صوته. انتبه شاكر إلى ما حوله، ثم بادر إلى تقديم المساعدة في فتح باب السيارة الذي تضرّر كثيراً بسبب الحادث.

لاحظ شاكر أنّ زر إقفال الباب مضغوطٌ إلى الأسفل، فمدّ يده من نافذة الباب الأماميّ التي تحطّم زجاجُها وسحب الزرَّ إلى الأعلى، ثم جذب الباب بقوّة فانفتح، وقفز الشابُ الحبيس وهو يرغي ويزبد. وبدلاً من أن يَشْكر الذي ساعدوه على الخروج، راح يصبّ جام غضبه عليهم جميعاً، بل نال شاكر منه دفعةً في صدره كادت تسقطه أرضاً. ثم هجم ابنُ السلطان على جنود الحراسة الواقفين عند البوابة، وراح يشتمهم ويصفعهم وهو يصرخ بهم متسائلاً لِمَ لم يطلقوا النار على الشاحنة التي صدمتْ سيارته وهربتْ. وعبثاً حاول جنود الحراسة إفهامه بأنّهم أطلقوا الرصاص فعلاً على الشاحنة، ولكنّهم لم يصيبوها ولم يصيبوا سائقها بفعل المفاجأة وسرعةِ الشاحنة. ولتأكيد صدق دعواهم أشاروا إلى أغلفة الرصاصات التي أطلقوها وقد تناثرتْ على الأرض.

شعر شاكر بالدم الساخن يصعد إلى وجهه، ولكنّه أبدى ضبطاً شديداً للنفس، ثم راح يتقدّم من الشاب بخطى شخص مروّض. وحين صار على مسافة أمتار قليلة منه، إذا بهذا الأخير يستدير فجأةً ليجد نفسه وجهاً لوجه مع شاكر. وبرعب وذهولٍ حدّق الاثنان واحدهما في وجه الآخر. طَفَتْ نظرةُ استنكار على سيماء ابن السلطان وهو يركّز نظره على شاربيْ شاكر المقصوصيْن على هيئة جناحَيْن، وجمّد الذعرُ شاكراً نفسه حين لاحظ أنّ الشخص الذي يقابله الآن قد حلق شاربَيْه على هيئة جناحَيْن أيضاً!

تصنّم ابنُ السلطان وهو يومئ بسبّابةٍ مرتخيةٍ إلى وجه شاكر. أحس شاكر بخوف ورعبٍ شديديْن، فنمت ابتسامةٌ ضارية على وجهه ما لبثت، تحت وطأة الخوف، أن تحولتْ ضحكةً سوداء هادرةً، انتبه إليها جميعُ الموجودين. فما كان من ابن السلطان إلا أن سدّد لكمتيْن هائلتَيْن: الأولى بيسراه إلى أعلى بطن شاكر، والثانية بيمناه إلى رأسه، فترنَّح كالمخمور، ثم سقط غائباً عن الوعي.

حين أفاق شاكر من غيبوبته، وجد نفسه شبهَ عارٍ من ملابسه، ممدَّداً ومنكفئاً على وجهه فوق أرض صلبة باردة. شعر بخدر وأوجاعٍ في أنحاء مختلفة من بدنه. تحسَّس فكه الذي بدا له منتفخاً وخَدِراً كقطعة من الخشب. انقلب على ظهره. وجد نفسه في ما يشبه البئر العميقة. عتمة كئيبة يتخلَّلها عمودٌ من الضوء الواهن ينصبّ من كوّةٍ في جدارٍ قاتمٍ مرتفع. لم يعرف إنْ كان الضوءُ ضوءَ فجر أم غروب. حاول النهوض فهاجمته أوجاعٌ غامضةٌ ممضّة في أنحاء مختلفة من جسده. وَقْعُ خطى ثقيلةٍ لشخصَيْن أو أكثر يقترب. صوتُ مفاتيح وصريرُ أبواب حديديّة في مكانٍ قريب. صوتٌ يأمر بإشعال الضوء. الضوءُ يغمر المكان. شخصان يقفان إزاء جسده الطافي في الخوف والألم والبرد. «أين رأيتُ هذا الوجه»؟ تساءل شاكر. ولم يَطُل انتظارُه، فقد صرخ ابنُ السلطان بصوته الرفيع والحاد كصوت الفتاة المدللة شاتماً. أجلسوا شاكراً على كرسيٍّ من الخشب، الأصفر الكئيب والأخضر الباهت، وراحوا يحققون معه ساعاتٍ وساعات.

بعد عدة جلسات، بدا على المحقِّقين ـ وأحدُهم كان ابن السلطان نفسه ـ أنّهم اقتنعوا بما ادّعاه شاكر من أنّ سبب الضحك والقهقهة هو الشعور بالخوف. ومن المحتمل أنّهم استشاروا طبيباً نفسياً في هذا الموضوع فأكّده، أو أنّهم استفسروا من بعض معارف المعتَقَلِ فانتهوا إلى صحة ما ادّعاه. أما الشيء الذي لم يستطع المحققون هضمَه فهو ما أجاب به شاكر على سؤالهم: «لماذا أقْدم على السخرية من الأمير طلال بن مولانا السلطان حين حلق شاربَيْه مثله بالضبط؟».

كان جواب شاكر أنّه لم يقلِّد أحداً، وأنّه حلق شاربَيْه منذ عدّة أيّام. وكاد يقول لهم إنّ لديه شهوداً، ولكنّه أحجم عن ذلك في اللحظة الأخيرة، وغرق في نوبة ضحكٍ لم يسبق له أنْ مرَّ بمثلها. فانهال عليه المحقِّقون ضرباً بالكبلات، وهي عصيٌّ معمولةٌ من ضفائر الأسلاك الكهربائيّة المضغوطة في أنابيب من المطاط الأسود الصلب، حتى أغمي عليه.

في مساء ذلك اليوم لم يقوَ شاكر على مقاومة جوعه الضاري، فهجم على طبق الرزّ والمرق ذي الرائحة الكريهة، وكان قد رفض أن يتناول منه شيئاً لعدّة أيّام، فالتهمه التهامَ الذئب الساغب، وانتهى من قطعة الخبز الغليظة والجافة بعدّة قضمات؛ فقد شعر أنّ أسنانه في تلك اللحظات قادرةٌ على سحق الحديد. وجلس يستريح ويتذكّر أحداث آخر تحقيق. ما الذي أضحكني كلَّ ذلك الضحك؟ وتذكّر موضوعَ الشهود. ترى ماذا سيحدث لو أنّه زَجَّ بأصدقائه الثلاثة في الموضوع؟ وماذا لو أنّ ابن السلطان اكتشف ما فعله هؤلاء الشباب على سبيل المزاح والدعابة؟ ما سيكون مصيرهم؟ وهل سيتردَّد هذا الوحشُ الصغير في إطلاق الرصاص من مسدسه الشخصيّ على جماجمهم لو أنّه رأى بعينيه تلك الشوارب الطريفة على «شعراتهم»؟».

شعر بالنعاس والخدر. ونام قليلاً أو كثيراً، فلم يعد يحس بالزمن.. ولكنّه تذكر حلمه العجيب في تلك الإغفاءة اللذيذة: كان ممدداً على طاولة بيضاء، تحيط به ثلةٌ من الرجال بملابس بيضاء ناصعة، وبأيديهم آلاتٌ غريبةٌ لم يرها من قبل. راحوا يفتحون صدره وبطنه ويُخرجون منها حيوانات بأحجام صغيرة، ويضعونها في أحواض زجاجيّة ملئتْ بالماء، ويضعون في صدره وبطنه عوضاً عنها قطعاً من المعدن مكعبةَ الشكل مختلفةَ الألوان. وأخيراً انتهى الرجال البيض من عملهم، وخاطوا الصدر والبطن بخيوطٍ من الحرير الأحمر والأزرق، وقال كبيرُهم أمراً: «اكتبْ: فلقد مات المواطن شاكر محمود بالسكتة

القلبيّة عند الساعة الثامنة وأربع وعشرين دقيقة». فضحك الكاتبُ وعلّق: «بالسكتة القلبيّة أيضاً؟». فقال كبيرُهم بصوتٍ مفعمٍ بالألياف وحليب جوز الهند: «نعم، بالسكتة القلبيّة، ولكنْ هذه هي المرّة الأولى في تاريخ السلطنة التي يموت فيها سجينٌ بالسكتة القلبيّة حقاً، ولن يصدِّقنا أحدٌ كالعادة».

أفاق محمود من حلمه مذعوراً، يغمره عرقٌ باردٌ ومخاوفُ طينيّة... وشرع يضحك بصوتٍ كتيم، ثم ما لبث أن فقد القدرة على ضبط ضحكاته المجنونة، فراحت تتفجّر مصحوبةً بصرخات وتأوهات من أثر آلام التقرُّحات على الظهر والصدر والفخذين. وها هو وقعُ الخطى الحجريّة يقترب. الباب ينفتح. الصرير يشب وينطفئ. الضوء يَغْمر الزنزانة الرطبة:

ـ لو اعترفتَ لي الآن بسبب ضحكك لأخرجتُك فوراً وأعدتُك إلى بيتك ووظيفتك.

قال الأمير طلال وهو يقرِّب خطمه من وجه الشاب، ولكنّه لم يحصل على جواب. نقلوه إلى غرفة التحقيق. كانوا يَجرّونه جراً بعد أن فَقَد القدرة على السير. أجلسوه على كرسيّ بلونَيْن: أصفر وأخضر. فتح عينيه بصعوبة:

ـ هل تعرف هؤلاء؟

جاءه السؤال. نظر إلى ثلاثةِ رجالٍ بالزيّ العسكريّ يقفون قريباً منه. وشعر بذعرٍ هائلٍ يجتاحه. إنّهم هم: باسم ومحسن وعدنان. لماذا جيء بهم إلى هنا؟ أدرك أنّ الكارثة قد حَلّت، وانتهى أمره وأمرهم جميعاً.

ـ نعم أعرفهم و...

ـ هل تريد أن تضيف شيئاً؟

ـ مَنْ؟ أنا؟ أنا أضيف؟ لا..

وشهد الأصدقاء الثلاثة بأنّ صاحبهم قد حَلَقَ شاربيه على هذه الهيئة قبل ثلاثة أيام من حادثة اصطدام سيارة الأمير. وهنا تدخّلَ شرطيٌّ كان يدوِّن مَحْضَر التحقيق وصحّح عبارةَ الشاهد بأنْ هَتَفَ:

ـ سموّ الأمير، لا الأمير!

وصحّح الشاهدُ عبارته. وتقرّر إخلاءُ سبيل المعتقل شاكر محمود، وأن يحال إلى التقاعد لأسباب «صحيّة» ثم وضعوا بين قوسَيْن كلمة: «عقليّة».

بعد أيام زار الأصدقاء زميلهم في داره فحدّثهم طويلاً عن معاناته، وعن سوء الحظ الذي أحاط بأيامه. ثم همس لهم أنّ أشدّ ما كان يقلقه ويميته رعباً هو أن يفكّر بمصيرهم لو علم الأميرُ بما فعلوه. وحين بدا أنّ الأصدقاء لم يفهموا ما عناه أشار شاكر إلى ما بين فخذيه فأغْرقوا في الضحك.

ـ ولِمَ أنت خائف إلى هذا الحدّ؟ لقد قضينا على مكمن الخطر. لقد حلقنا كلّ شيء بمجرّد أن عَلِمْنا بخبر اعتقالك.

ـ ماذا؟ حلقتم كل شيء؟ وكيف ذلك؟

تساءل غيرَ مصدِّق، وكأنّه نسي تماماً أنّ بإمكان البشر أن يحلقوا الشعر من أيّ مكانٍ في أجسادهم. وهنا شعر شاكر أنّ سبب إحالته إلى التقاعد معقولٌ جداً وليس فيه أيما غبن لقدراته العقليّة. ولأوّل مرة في حياته شعر برغبة حقيقيّة في الضحك، لا خوفاً أو رعباً، بل ضحكاً صحياً وعادياً، ضحكاً أبيض، على نفسه ومنها. وها هو يفعل.. فيشعر أصدقاؤه بالخوف.

جنيف (العراق)